2

" لماذا يكرهوننا إلى هذا الحدّ؟ "

إنهم يكرهون ما نراه أمامنا هنا في هذا المجلس: أي الحكومة المنتخبة ديمقراطياً.... يكرهون حرياتنا: ما لدينا من حرية الاعتقاد، وحرية الكلام، وحرية التصويت والاجتماع والاختلاف بعضنا مع بعض.... هؤلاء الإرهابيون لا يقتلون لكي يميتوا أشخاصاً وحسب، بل لكي يخرّبوا طريقة حياة ويضعوا حدّاً لها.

الرئيس جورج دبليو بوش

20 أيلول 2001

كلمات الرئيس بوش عن أهداف الإرهابيين قبل جلسة مشتركة للكونغرس على أثر الهجمات على الأرض الأميركية، لقيت أصداء طيبة لدى أمّة كانت تلتمس برهاناً على قوتها وهويتها واحتشدت لتواجه عدوّاً رهيباً. كما عملت هذه الكلمات أيضاً على إجهاض ضَرْبٍ من الغريزة كان حتمياً بالنظر إلى حجم

المأساة الأميركية: غريزة تدفع إلى الضرب خبط عشواء، وتنشد تخفيف الألم بأية وسيلة. كانت هذه الكلمات تَذْكِرَةً بأنَّ ما يدفع إلى رفض الإرهاب هو أنَّ ما من غاية، مهما تكن نبيلةً، يمكن أن تبرر الوسائل الشنيعة التي يستخدمها الإرهابيون. كما كانت نوعاً من التحذير، على الرغم من الألم الكاسح الذي استشعره الأميركيون، بألاّ تقسو قلوبنا إلى الحدّ الذي ننسى عنده أنَّ ما هو موضع رهان أكبر بكثير من مجرد القصاص وأننا لا يمكن أن ندافع عن قيمنا عبر تهديمها.

وأبعد من هذه الرسالة المهمّة، كان ثمة حقيقة أيضاً في افتراض الرئيس أنَّ بن لادن نفسه، والقاعدة عموماً، يسعيان إلى استهداف أميركا بسبب ما تمثّله. فالقاعدة تدافع عن نظام عالمي متعصّب لا مكان فيه لأولئك الذين لا يتمسّكون بآرائها المتزمّتة، وإن كانت أيضاً تعارض السياسات الأميركية تجاه الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، بما في ذلك وجود القوات الأميركية في العربية السعودية. فالصدام بين القاعدة وكثير من العالم هو في النهاية صراع قيم ورؤىً إلى العالم فضلاً عن كونه صدام سياسات. وإذا ما كان هذا يصحّ على القاعدة، فإن من غير الصحيح أنَّ ضروب الاستياء من السياسات الأميركية في البلاد العربية والإسلامية هي في جوهرها انعكاس لصدام القيم. غير أنَّ هذا التمييز بين رسالة بن لادن ومصادر الاستياء من أميركا في الشرق الأوسط، مما حاول الرئيس وكثير من أعضاء الكونغرس

إقامته في الأيام الأولى بعد 9/11، سرعان ما تشوّش في الجدال داخل أميركا.

ففي خطابنا الوطني العام، وحين يتساءل الناس: "لماذا يكرهوننا إلى هذا الحدّ؟" صارت "واو" الجماعة تعني على نحوٍ متزايدٍ كلاً من العرب والمسلمين بوجهٍ عام، وليس فقط أولئك الذين شنّوا هجماتهم على أميركا. ومثل هذا النزوع يمكن تفسيره بسهولة، جزئياً على الأقلّ. فإلى جانب ادّعاء القاعدة وزعمائها أنهم يتكلمون باسم المسلمين في العالم كلّه، ثمة أدلّة قوية أيضاً على أنَّ الجمهور في الشرق الأوسط خاصةً، وفي العالم الإسلامي بوجه عام، ظلّ على استيائه من أميركا حتى في لحظة المأساة. كما عبّر هذا الجمهور عن تعاطفٍ مع بن لادن يفوق ما توقعته أميركا، وعارضت أوساط واسعة منه حرب أميركا على أفغانستان.

وقد صدرت عن بعض المعلّقين المفعمين بالكراهية، ومن بينهم كُتُرٌ في مواقع السلطة الدينية، كلمات تعكس التصور الذي مفاده أنَّ صراع القيم هو القضية المحورية. وبذلك، سرعان ما اكتسبت زخماً كبيراً تلك الأطروحة التي قدّمها صموئيل هنتنجتون، البروفسور في جامعة هارفرد، حيث يرى أن العالم يسير باتجاه "صدام الحضارات"، خاصةً بين عالم الإسلام والغرب.

تصورات العالم عن أميركا

إزاء الخطر الماثل في إمكانية التطور الفعلي لمثل هذا الصدام، فإنَّ غياب منظورٍ عالمي للكيفية التي يرى بها العالم اليوم إلى أميركا يمكن أن يساعد على تحويل "صدام الحضارات" من مجرد أطروحة إلى نبوءةٍ تتحقّق بالفعل. ولهذا، فإنَّ من المهمّ أن نضع تلك الآراء التي يحملها العرب والمسلمون عن الولايات المتحدة ضمن سياق عالمي واسع. وما يبيّنه مثل هذا السياق مباشرةً هو أنَّ كثيراً من الآراء السلبية التي يعبّر عنها البشر في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي تجاه أميركا هي آراء يتقاسمها معهم كثير من البشر في مناطق أخرى من العالم. وإذا ما كانت هنالك قضايا خاصة يتفرّد بها العرب والمسلمون وتتطلّب تفسيرات خاصة، إلاّ أنَّ الشرق الأوسط ليس بعيداً عن كثير من القضايا التي تحدّد تصورات العالم عن أميركا.

والحال، أنَّ لجنة مجلس العلاقات الخارجية غير الحزبيّ التي التأمت لتناول الحاجة إلى دبلوماسية أميركية عامة أكثر فعالية كانت قد لخّصت ما اكتشفته بشأن الطريقة التي ينظر بها العالم إلى أميركا على النحو التالي:

وبالطبع، فإنَّ التصورات الخارجية عن الولايات المتحدة بعيدة كل البعد عن أن تكون كتلة مصمتة واحدة. غير أنه يكاد أن

يكون من المؤكّد أنَّ الصور النمطية عن الولايات المتحدة بوصفها متغطرسة، ومنغمسة في ذاتها، ومنافقة، وغافلة، ولا تريد أو لا تستطيع أن تنخرط في حوار عابر للثقافات هي صور عميقة الجذور. ويرى بعضهم أن الأميركيين قد أغفلوا مشكلة الإرهاب أشدّ الإغفال - لنتذكر تلك السرعة التي نسينا بها الهجوم على مركز التجارة العالمية في العام 1993 - إلى أن نزل بنا ذلك العمل الفادح في 11 أيلول.[3]

كان بعض هذه المواقف قد انعكس في استطلاعات للرأي أُجريت على نطاق عالمي بعد الهجمات التي تعرّضت لها الولايات المتحدة. وكان من بين المكتشفات الأشدّ لفتاً للانتباه ذلك التصوّر الشائع الذي مفاده أنَّ السياسة الأميركية أحادية الجانب وأنَّ الحرب على الإرهاب والعراق قد شُنَّت خدمةً للمصالح الأميركية وحدها، دون أن تُؤخذ في الحسبان حتى مصالح الأصدقاء والحلفاء. ولقد تبيّن أنّ التصوّر عن أحادية الجانب الأميركية هو تصور واسع الانتشار في أوروبا أيضاً، سواء قبل هجمات 9/11 أم بعدها. ففي آب من العام 2001، نشرت "الإنترناشيونال هيرالد تريبيون"[4]

---

3 - تقرير لجنة مستقلة من مجلس العلاقات الخارجية بعنوان *الدبلوماسية العامة: استراتيجية للإصلاح* (نيويورك، مطبوعات CFR، تموز2002).

4 - استطلاع منشور في *الإنترناشينال هيرالد تريبيون*، 2001/8/15. وهو استطلاع أجراه مركز بيو للأبحاث بالاشتراك مع تلك الصحيفة وبالتعاون مع مجلس العلاقات الخارجية.

استطلاعاً للرأي أجراه مركز بيو للأبحاث بالتعاون مع مجلس العلاقات الخارجية، حيث تبيّن أنَّ أغلبية الأوروبيين يعتقدون أنَّ السياسة الخارجية الأميركية تستخفّ بمصالحهم. ومن بين الذين استُطلِعَت آراؤهم، عبّر 79٪ من البريطانيين، و74٪ من الإيطاليين، و73٪ من الألمان، و85٪ من الفرنسيين عن شعورهم بأنَّ الرئيس بوش "يتخذ قرارات لا تستند على الإطلاق إلا على مصالح الولايات المتحدة"، دون اعتبار لمصالحهم أو مصالح بلدانهم.

ولقد أتت هذه النتائج متّسقة مع استطلاع غالوب الصادر في نيسان[5] 2002، حيث عبّرت الغالبية العظمى في أربعة بلدان أوروبية عن رأي مفاده أنَّ الولايات المتحدة لا تأخذ في حسبانها مصالح الحلفاء في شنّها الحرب على الإرهاب وأنها تتصرّف لمصلحتها الخاصة في مقارعتها هذا الإرهاب (85٪من الفرنسيين، 73٪من البريطانيين، و68٪من الإيطاليين). واللافت، أنَّ كثيراً من الشعب الأميركي يقاسم الآخرين هذا الرأي عن أحادية الجانب الأميركية: ففي المسح ذاته، وافق 41٪ من الأميركيين على أنَّ الولايات المتحدة تتصرف على نحوٍ أحادي الجانب، دون أن تحسب حساباً لمصالح حلفائها.

---

5 ـ استطلاع غالوب للعالم الإسلامي عام 2002. وقد شمل هذا الاستطلاع عشرة آلاف شخص في تسعة بلدان ذات أغلبية مسلمة. ففي كانون الأول 2001 وكانون الثاني 2002، أجرى الباحثون مقابلات شخصية، على مدى ساعات في كلّ من العربية السعودية وإيران والباكستان وأندونيسيا ولبنان والكويت والأردن والمغرب.

وتمضي هذه الآراء العالمية واسعة الانتشار إلى أبعد من الرأي العام. فقد أعلن فرناندو هنريك كاردوزو، الرئيس البرازيلي وعالم الاجتماع البارز، أمام الجمعية الوطنية الفرنسية في باريس في 30 تشرين الأول 2001، أنَّ "البربرية لا تقتصر على جبن الإرهاب بل تتعداه إلى التعصب أو فرض سياسات أحادية الجانب على نطاق عالمي".[6]

وإذا ما كانت حكومات كثيرة قد قدمّت دعمها للحرب الأميركية في أفغانستان في مراحلها الأولى، بما في ذلك دول ليست صديقة مثل إيران، فإنَّ معارضة الشعوب لهذه الحرب لم تقتصر على العالم العربي والإسلامي بأي حال من الأحوال بل عمّت البلدان النامية، خاصةً أميركا اللاتينية وأفريقيا. ومن بين أحد عشر بلداً في أميركا اللاتينية قامت مؤسسة غالوب باستطلاع الرأي فيها في تشرين الثاني وكانون الأول من العام 2001[7]

---

6 ـ كلمة هنريك كاردوزو، في مقالة لكينيث ماكسويل بعنوان "نزعة العداء لأميركا في البرازيل" منشورة في *مراسلات: مجلة الثقافة والمجتمع الدولية*، العدد 9، ربيع 2002. وهذه الكلمة متوفرة أيضاً على الموقع:
.http://www.brazilnetwork.org/analysis.htm

وكان رئيس جنوب إفريقيا السابق نلسون مانديلا قد وصف المقاربة الأميركية وحيدة الجانب بأنها "تهديد للسلم العالمي" (من *النيوزويك* على شبكة الإنترنت. مقابلة أجراها توم ماسلاند ونُشرت بعنوان "نلسون مانديلا: الولايات المتحدة الأميركية تهديد للسلم العالمي"، 10 أيلول 2002.

7 ـ استطلاع غالوب الدولي الخاص بالإرهاب الذي طال ستين بلداً في تشرين الثاني وكانون الأول 2001.

عارضت الغالبية في عشرةٍ منها الحرب في أفغانستان، بما في ذلك 76٪ في الأرجنتين، 73٪ في المكسيك، و72٪ في بوليفيا. كما عارضت الحرب الغالبية في ثلاثةٍ من بين أربعة بلدان أفريقية.

وحتى في المسائل المتعلّقة بالسياسة الأميركية في الشرق الأوسط، كان اتجاه الرأي العالمي مماثلاً لاتجاه الرأي الذي عُبِّرَ عنه في الشرق الأوسط. والأكيد أنَّ شعوب الشرق الأوسط تشكك في السياسة الأميركية في المنطقة، وتعارض بقوة شنّ حرب جديدة على العراق، وتشعر أنَّ سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط محابية لإسرائيل على حساب هذه الشعوب. ومهما تكن الاستنتاجات التي يمكن أن يتوصّل إليها التقويم الموضوعي لسياسة الولايات المتحدة، فإنَّ مثل هذه التصورات هي تصورات شائعة على نطاق واسع في أرجاء العالم.

وعلى سبيل المثال، فقد عبّرت الأغلبية في أوروبا الغربية عن ردّة فعل سلبية أكيدة إزاء تسمية الرئيس بوش كلاً من العراق، وإيران، وكوريا الشمالية "محور الشر". كما شهدت بلدان مثل ألمانيا وإيطاليا معارضة شديدة لأيّة عملية عسكرية تقودها الولايات المتحدة ضدّ العراق. وحتى في بريطانيا، حيث تجد الولايات المتحدة دعماً قوياً، بيّن استطلاع نشرته الميل في 4 آب 2002 أنَّ الغالبية تعارض الحرب على العراق وتعتقد أنَّ رئيس الوزراء طوني بلير يتصرّف مثل "تابع" للرئيس بوش. أمّا انتقاد

السياسة الأميركية تجاه الشرق الأوسط بوجه عام فهو انتقاد واسع الانتشار في كلّ بقاع الدنيا، بما في ذلك أوروبا الغربية.

ففيما يتعلّق بالصراع العربي الإسرائيلي - وهو الصراع الأهمّ بالنسبة لكثيرين في الشرق الأوسط ويستجّر قدراً كبيراً من انتقاد السياسة الأميركية - تكشف الاستطلاعات عن مشاعر سلبية متّسقة ومتوافقة تجاه الولايات المتحدة في أرجاء العالم. ففي أوروبا الغربية، مثلاً، حيث ثمة إحساس عام بأن سياسة الولايات المتحدة تجاه الصراع العربي الإسرائيلي هي سياسة منحازة، يفوق عدد الذين يعبّرون عن تعاطفهم مع الفلسطينيين عدد الذين يعبّرون عن تعاطفهم مع إسرائيل. وبوجهٍ عام، فإنَّ غالبية الأوروبيين لا تتعاطف مع أي من الطرفين، لكن أولئك الذين يتخذون موقفاً يفضّلون الفلسطينيين أكثر. ومن اللافت، في استطلاع أجرته زغبي إنترناشيونال في فرنسا ربيع العام 2002[8] "أنَّ 70٪ من الذين جرى استجوابهم قالوا إنَّ ردّة فعلهم تجاه الولايات المتحدة كانت أفضل لو أنها " مارست ضغطاً يكفل قيام دولة فلسطينية مستقلة".

واللافت أيضاً أنَّ آراء الجمهور الأميركي تردّد من بعض النواحي أصداء الآراء الأوروبية حول الصراع العربي الإسرائيلي.

---

8 - استطلاع أجرته مؤسسة زغبي إنترناشيونال بعنوان "انطباعات عشر دول عن أميركا"، اشتمل على مقابلات شخصية في مصر وفرنسا وأندونيسيا وإيران والكويت ولبنان والباكستان والعربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وفنزويلا بين 4آذار و 3نيسان 2002 وصدر في 11 نيسان 2002.

فجميع الاستطلاعات تقريباً تبيّن أنَّ معظم الأميركيين لا يفضّلون الإسرائيليين ولا الفلسطينيين. أمّا بين الأقلية التي تتّخذ موقفاً، فمعظمهم يفضّلون إسرائيل. بيد أنّ هنالك فروقاً حاسمة، في قضايا السياسة، بين آراء الجمهور الأميركي وسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وعلى سبيل المثال، فقد مرّر الكونغرس بأغلبيته الساحقة قراراً في نيسان 2002 يعبّر عن دعمه المطلق لأعمال إسرائيل العسكرية ويقرّ بأنَّ "الولايات المتحدة وإسرائيل منخرطتان الآن في كفاح مشترك ضدّ الإرهاب". لكنَّ استطلاعاً أُجري في الوقت ذاته، من قبل "البرنامج الخاص بالمواقف السياسية الدولية[9]" في جامعة ميريلاند، يبيّن أن 17٪ فقط من المستجوبين هم الذين رأوا في صراع إسرائيل مع الفلسطينيين نسخةً شرق أوسطية من الحرب على الإرهاب. كما يبيّن الاستطلاع ذاته أنَّ غالبية كبيرة من الأميركيين يريدون

---

9 ـ استطلاع أجراه البرنامج الخاص بالمواقف السياسية الدولية (PIPA) بعنوان "الأميركيون والصراع العربي الإسرائيلي". وPIPA هو برنامج مشترك بين المركز الخاص بالمواقف السياسية (COPA) ومركز الدراسات الدولية والأمنية في ميريلاند (CISSM)، كلية الشؤون العامة، جامعة ميريلاند. وقد أجرى PIPA دراسة معمقة للمواقف العامة الأميركية من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني من خلال مراجعة الاستطلاعات التي أجرتها مؤسسات أخرى، فضلاً عن استطلاعه آراء جماعات منتقاة في شيكاغو وبالتيمور، واستطلاع آراء عيّنة مختارة عشوائياً على مستوى الأمة ككل مؤلّفة من 802 من الأميركيين، وذلك بين 1 ـ 5 آذار 2002(وكان هامش الخطأ 3.5 ـ 4 زيادةً ونقصاناً).

للسياسة الخارجية الأميركية أن تكون بعيدة عن التحيّز في حقيقة الأمر.

ولهذا، فإنّه لمن المهمّ أن نبدأ أيّة دراسة لمواقف العرب والمسلمين من الولايات المتحدة بأن نتذكّر أنّ هذه المواقف، فيما يتعلّق بقضايا كثيرة، خاصةً تلك المرتبطة بالسياسة الخارجية الأميركية، لا تبدو مغايرةً كثيراً للسياق العالمي، مهما تكن الأسباب التي تقف خلفها.

مواقف العرب والمسلمين من الولايات المتحدة

في شهادته أمام "لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب" عند نهاية حرب الخليج في العام 1991، عبّر أحد المحللين أحسن تعبير عن النظرة السائدة إلى مواقف العرب والمسلمين من الولايات المتحدة. قال هذا المحلل: "أعتقد أن غضب الشارع العربي هو غضب فعليّ. وهو ناجم عن عوامل عديدة. لكن المهمّ في النهاية ليس ما إذا كانوا يكرهوننا أو يحبوننا، فهم في معظمهم يكرهوننا. وقد كانوا كذلك من قبل. ما يهمّ هو ما إذا كانوا سيحترمون قوتنا أم لا[10]". يشير هذا الرأي إلى أنّ الاستياء الجوهري من الولايات

---

10 ـ لجنة الاستماع الخاصة بالشؤون الخارجية: قضايا السياسة في الخليج الفارسي بعد الحرب (1991)،
102 d Congress, 1st sess., 102. Washington, D.C.: U.S. Government Printing Office

المتحدة كان موجوداً على الدوام وأنَّ مثل هذا الاستياء من غير المحتمل أن يتغيّر، وأنَّ على الولايات المتحدة، إذاً، ألا تهتمّ كثيراً بتناول مصادر هذا الاستياء وأن تركّز بدلاً من ذلك على استخدام قوتها في تحقيق غاياتها السياسية. وسوف أتناول في الفصل التالي هذه المسألة المهمة عمّا إذا كان على صنّاع السياسة الأميركية أن يهتمّوا بالمواقف العامة في الشرق الأوسط خصوصاً، وفي أرجاء العالم عموماً، أم لا. أمّا الآن، فإنَّ من المهمّ أن نرى مدى صحّة القول بأنَّ المواقف من الولايات المتحدة كانت سلبية على الدوام، وأن نحلل نتائج الدراسات التي أجريت منذ أيلول 2001 على هذا الصعيد.

على الرغم من صحة القول إنّ هنالك كثيراً من الأشياء المشتركة في آراء العرب والمسلمين، إلاّ أنَّ هذه الآراء ليست كتلة واحدة مصمتة بأي حال من الأحوال، وثمة اختلافات كبيرة بين العرب وسواهم من المسلمين، ثقافياً، وسياسياً، وجغرافياً، وحتى دينياً. كما أنَّ من المهمّ أيضاً أن نتذكر أنَّ ما يجمع سياسياً كثيراً من حكومات المنطقة العربية والإسلامية مع الولايات المتحدة قد كان، حتى تاريخ قريب، أكبر مما يجمعها مع بعضها بعضاً. ومن الواضح أنَّ حرب الخليج في العام 1991 قد كانت مثالاً على تحالف تقوده الولايات المتحدة ويضم دولاً إسلامية في مواجهة دولةٍ أخرى مسلمة، هي العراق. وعلاوة على ذلك، فإنَّ الدولتين من بين دول العالم الإسلامي اللتين تحكمان باسم

الإسلام أكثر من سواهما في العقود الأخيرة، أي العربية السعودية وإيران، قد مارستا سياستين خارجيتين مختلفتين تماماً، حيث الأولى حليفة للولايات المتحدة في حين أنَّ الأخرى خصم لها.

ومن المهمّ أيضاً أن نتذكّر أن الغرب ذاته ليس كتلة واحدة مصمتة في أعين شعوب البلدان العربية والإسلامية. ومع أنَّ الكثيرين ممّن يطلقون الكلام في النقاشات العامة الأميركية لا يزالون يرون أنّ مصادر استياء العرب والمسلمين من الولايات المتحدة هي تلك المعارضة العميقة لـ" القيم الغربية"، إلاّ أنَّ شعوب الشرق الأوسط بصورة خاصة تحمل آراء مختلفة تماماً تجاه البلدان الغربية المختلفة. فلقد بيّن استطلاع نشرته غالوب في شباط 2002[11]، على سبيل المثال، أنَّ الآراء المناوئة للولايات المتحدة أكثر من الآراء المحبّذة لها في جميع الدول الإسلامية التسع المدروسة باستثناء دولة واحدة، في حين أنَّ الآراء المحبّذة لفرنسا هي أكثر من الآراء المناوئة لها في جميع هذه الدول ما عدا اثنتين. ومن الصعب، إذاً، أن نرى في هذه المواقف ردّة فعل على "القيم الغربية" بقدر ما هي ردّة فعل على سياساتٍ بعينها.

---

11 ـ استطلاع غالوب للعالم الإسلامي عام 2002 (انظر الهامش 3).

السياسات مقابل القيم

لاشك أنَّ قدراً كبيراً من السخط على الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ناجم عن السياسات الأميركية تجاه المنطقة والأهداف الأميركية كما تتصورها هذه الأخيرة. ومن المعروف تاريخياً أنَّ بعض الجماعات الدينية قد اعترضت على استيراد القيم الغربية إلى الشرق الأوسط وشعرت خاصةً بتهديد ذلك النزوع إلى العلمنة الذي حاول أن يخلقه القوميون المتأثّرون بالغرب. غير أنَّ استطلاعات هذه الأيام تؤكّد ما يشير إليه تاريخ علاقة الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط من أنَّ مصادر هذا السخط ترتبط أكثر ما ترتبط بسياسة الولايات المتحدة.

في استطلاعين للرأي كنتُ قد قمتُ بهما (بالتعاون مع زغبي إنترناشيونال) في العربية السعودية في آذار 2002، طُرِحَ هذا السؤال: "هل تتبع الإحباطات التي تشعر بها تجاه الولايات المتحدة من سياساتها أم من قيمها؟" ولدى مسح آراء النخب السعودية، رأى 68٪ أنَّ السياسات الأميركية هي مصدر ما يشعرون به من إحباط، أما في مسح آراء الجمهور السعودي، فقد أشار 59٪ إلى أنَّ "السياسات" هي المصدر، في حين أشار 19٪ إلى القيم. وما عزّز هذه النتيجة هو ردّ السعوديين على سؤال آخر عن زعماء العالم غير السعوديين الذين يعجبونهم أكثر من غيرهم. فبين النخب، نال

الرئيس المصري حسني مبارك أكبر عدد من الأصوات (62٪)، تلاه الرئيس الفرنسي جاك شيراك (11٪) ثمّ رئيس الوزراء الماليزي مهاتير محمد (10٪) وهؤلاء الثلاثة جميعاً هم زعماء غربيون أو مناصرون للغرب. أما بين الجمهور، فنال الرئيس السوري بشار الأسد أكبر عدد من الأصوات (11٪)، في حين نال الرئيس المصري حسني مبارك (10٪)، والرئيس الليبي معمر القذافي (9٪)، وجميعهم قوميون عرب علمانيون. ولم تُظْهِر النخب أيّ إعجاب يُذكر بأيّ زعيم إسلامي، والإسلامي الوحيد الذي نال إعجاباً مهمّاً بين الجمهور هو أسامة بن لادن (8٪). ولقد نال "جورج بوش" (مع أنَّ المستجوبين لم يحددوا أيّ بوش يقصدون) 4٪، أكثر من زعيم طالبان الملاّ عمر، وزعيم حماس أحمد ياسين، والمرجع الديني يوسف القرضاوي مجتمعين. وبعبارة أخرى، فإنَّ الشخصيات البارزة التي تثير إعجاب كلٍّ من النخب والجمهور هي شخصيات علمانية، وليست دينية.

ومع أنَّ كثيرين في المنطقة يعارضون أميركا والقيم الغربية بوجهٍ أعمّ، فإنَّ من المهمّ أن نفهم مصدر كرههم هذا. فما تشير إليه الاستطلاعات هو أنَّ التصور السائد في البلاد العربية والإسلامية يرى أنَّ الدين والعائلة لا أهمية لهما في أميركا. ولا شك أنَّ مثل هذه القيم هي قيم أساسية في البلاد العربية والإسلامية. وفي استطلاع للغالوب[12] طال تسعة بلدان مسلمة ونُشِرَ في شباط

12 ـ استطلاع غالوب للعالم الإسلامي عام 2002.

2002، طُلب من المُستَجوَبين أن يرتّبوا حسب أهميتها في حياتهم خمس مؤسسات: الدين، العائلة الممتدة، البلد، و"الذات". وكان من المتوقّع أن تحظى اثنتين من هذه المؤسسات - الدين والعائلة - بأهمية أكبر من سواها بكثير. ولقد تنافس عيشُ حياةٍ اقتصادية مريحة مع عيشِ حياةٍ روحية ودينية على الأهمية المسبوغة على هذه المؤسسات في عدد من البلدان - بما فيها الأردن، والعربية السعودية، والمغرب، والكويت، وتركيا، وأندونيسيا، ولبنان - حيث فاقت الأهمية الممنوحة للرفاه الاقتصادي تلك الممنوحة للثراء الديني أو الروحي بفارق كبير.

ومع أنَّ البشر في البلدان الإسلامية يتصورون أنَّ لا أهمية للدين والعائلة في الحياة الأميركية، إلاّ أنَّ الأميركيين أنفسهم عادةً ما يضفون في استطلاعات الرأي أهمية رفيعة على هاتين القيمتين. وبوجه عام، فإنَّ التصورات في البلدان الإسلامية تقوم على منظور ضيق ينظرون من خلاله إلى الولايات المتحدة: البرامج التلفزيونية والأفلام التي تخلّف انطباعاً بأنَّ قيم هوليود هي قيم أميركا. ومعظم الناس لا يعرفون عن الثقافة الأميركية ما يتعدّى ذلك، وحتى في المراكز التعليمية الكبرى والجامعات، خاصةً في العالم العربي، لا نجد سوى قلّة قليلة من برامج الدراسات الأميركية المهمّة.

وعلى الرغم من التعبير عن النفور من القيم الأميركية المتصوَّرة، إلاّ أن بعض هؤلاء النقّاد يسعون بقوة للعيش في أميركا،

ويبدون رغبة في مشاهدة تلك الأفلام الأميركية التي ينتقدونها، ويتمتعون باستهلاك المنتجات الأميركية. وفي البلاد العربية بوجه خاص، ثمة كثيرون ممن تروق لهم القيم الأميركية. ولقد أظهر استطلاع قامت به مؤسسة زغبي إنترناشيونال في عشرة بلدان أنَّ الغالبية في البلدان العربية الخمسة من بين التي طالتها الدراسة تنظر نظرة محبّذة إلى " الحرية والديمقراطية " الأميركيتين. كما أظهر المسح أنَّ الغالبية في البلدان العشرة جميعها تحبّذ الأفلام الأميركية، والمنتجات الأميركية، والأهم من ذلك التعليم الأميركي.

وبخلاف النظرة إلى الثقافة والقيم الأميركية، عبّر المستجوبون في هذا الاستطلاع ذاته عن آراء سلبية تجاه السياسات الأميركية. ففي البلدان العربية والإسلامية بلغت نسبة من يدعمون الحرب على الإرهاب حوالي الثلث، ولم يحبّذ السياسة الأميركية في فلسطين سوى حوالي 12٪. ولا شك أنَّ في العالم الإسلامي، كما في أجزاء أخرى من العالم، بعض من يحملون آراء متعصّبة، أو عنصريين، يكرهون القيم الأميركية عموماً. وحتى الأميركيون أنفسهم ليسوا موحَّدين بشأن ما ينبغي أن تكون عليه قيمهم أو بشأن الدور الذي ينبغي للدين أن يلعبه في مجتمعنا، دع عنك الدور الذي ينبغي للقيم الهوليودية أن تلعبه في الحياة الأميركية. بيد أنَّ الأدلة تبقى واضحةً: فالقضية الأساسية التي تقف خلف السخط الذي يستشعره معظم الناس حيال الولايات

المتحدة ليست القيم الأميركية بل السياسات الأميركية. ولذلك من المهمّ أن نبدأ بمراجعة موجزة لتطور علاقات أميركا بالشرق الأوسط.

obeikandl.com

مراجعة تاريخية

ثمّة تعارض لافت تماماً بين مواقف المنطقة اليوم من الولايات المتحدة وفرنسا ومواقفها من القوى الغربية في النصف الأول من القرن العشرين. ففي حين كان للأوروبيين صلات قديمة مع الشرق الأوسط، كانت الولايات المتحدة بعيدة جغرافياً عن تلك المنطقة. وحين كانت الأمم الأوروبية تتآمر لتتقاسم أسلاب الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط فيما بينها، أرسل الرئيس الأميركي وودرو وِلْسون لجنة كِنغ - كران إلى الشرق الأوسط لتحرّي رغبات شعوبه، وذلك في اتّساق مع دفاعه القوي عن حق تقرير المصير. والمفارقة، أنَّ أعضاء اللجنة قد سمعوا أثناء زيارتهم لسوريا ولبنان وفلسطين في العام 1919 من يقول لهم إنَّ الشعب هناك مستعدّ، إذا ما أخفق تحقيق الاستقلال، لأن يقبل بالولايات خياراً أولاً لحكمه عبر انتداب من عصبة الأمم. فالغالبية الطاغية هناك كانت تعارض فرنسا، باستثناء بعض العرائض المناصرة لها من لبنان.

كانت الغلبة في النهاية للقوى الأوروبية. وتحطّمت آمال المنطقة بتقرير المصير والاستقلال مع تقسيم الشرق الأوسط تبعاً لمصالح القوى الاستعمارية الأوروبية، خاصةً بريطانيا وفرنسا. وعلاوةً على ذلك، كان الغزو الإيطالي لليبيا قد بدأ في

العام1911. وشكّلت تلك التقسيمات الاستعمارية أساس منظومة الدول الحالية. كما تركت ندبة في نفسية المنطقة غالباً ما تُثار من قِبَل الحركات السياسية العربية الساعية إلى قلب ما ترى فيه تقسيمات ليست طبيعية أدّت إلى إضعاف شعبٍ ذي تاريخٍ عظيم. ولطالما حلم كلّ من القوميين العلمانيين العرب، خاصةً أولئك الذين قادهم الرئيس المصري جمال عبد الناصر في الخمسينيات والستينيات، والحركات السياسية الإسلامية بتوحيد المنطقة باسم العروبة أو الإسلام. حتى الرئيس العراقي صدام حسين، الذي تزعّم حزب البعث، وهو حزب قومي عربي علماني، حاول أن يصوّر نفسه على أنه بسمارك العالم العربي الذي سيزيل ما في المنطقة من إحساس بالضعف من خلال توحيدها.

تنامى دور الولايات المتحدة السياسي والعسكري في الشرق الأوسط تنامياً ملحوظاً بعد الحرب العربية الإسرائيلية في العام 1967. أمّا في النصف الأول من القرن العشرين، فكانت صلات الولايات المتحدة بالمنطقة صلات تجارية أساساً، خاصةً ما يتعلّق بالنفط، فضلاً عن التبادل الثقافي، بما في ذلك إقامة المراكز التعليمية مثل الجامعة الأميركية في بيروت. وكان الرأي العام السائد في الشرق الأوسط عن الولايات المتحدة رأياً إيجابياً إلى حدٍّ بعيد، بخلاف التوتر المتواصل بين المنطقة والقوى الأوروبية، خاصةً بريطانيا وفرنسا، والذي دام إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، بل إلى ما بعد انتهاء مرحلة السيطرة الانتدابية.

وكان دور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط قد تنامى بعد الحرب العالمية الثانية مع إدخال مبدأ ترومان في العام 1947، ذلك المبدأ الذي يرمي إلى حماية تركيا واليونان، على أطراف المنطقة، من التهديدات السوفييتية. غير أنَّ القضية الأساسية المحدِّدة للحركة القومية العربية كانت مناهضة الإمبريالية، التي قُصِدَ بها بالدرجة الأولى الإمبريالية البريطانية والفرنسية. فلقد تواصل حضور بريطانيا وفرنسا في شمال إفريقيا والخليج العربي طوال العقدين التاليين. وكلتاهما انضمتا إلى إسرائيل عام 1956 فيما دُعي بحرب السويس ضد مصر بعد أن أمّم الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، قناة السويس، التي كانت للحكومة البريطانية حصّة الأقلية فيها، لكنها كانت حصّة كبيرة. غير أنَّ معارضة أميركا لتلك الحرب التي شنّها حلفاؤها الأوروبيون خلال ولاية الرئيس دوايت آيزنهاور هي التي أجبرت في النهاية كلاً من بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل على التراجع عن مصر.

وفي العقد الذي تلا ذلك، زاد التوتر بين الولايات المتحدة والحكومات القومية العربية، خاصةً في مصر وسوريا، إذ انضمت تلك الحكومات إلى حركة عدم الانحياز وراحت تقترب من الاتحاد السوفيتي. وفي العام 1957، أعلنت الولايات المتحدة مبدأ آيزنهاور، الذي رمى إلى الحيلولة دون النفوذ السوفييتي في المنطقة، وأفضى لاحقاً إلى إنزال القوات الأميركية في لبنان. لكن الأوروبيين واصلوا حضورهم في المنطقة وكانوا الهدف الرئيس

لغضبها. فالخليج العربي، حيث مصادر الطاقة التي تشكّل مصلحة هائلة للغرب، كانت تحميه القواعد العسكرية البريطانية أساساً، وليس الأميركية. أما إسرائيل، التي كانت تتلقى الدعم السياسي والاقتصادي المتواصلين من الولايات المتحدة، فكانت قواتها العسكرية تعتمد بصورة تكاد تكون مطلقة على الأسلحة الفرنسية. فسلاحها الجوي، الذي كان حاسماً في كسب الحرب العام 1967 مع مصر وسوريا والأردن كانت قد زوّدتها به فرنسا بصورة أساسية. وفي العقد بين حرب السويس وحرب العام 1967، كان العرب متورطين إلى حدٍّ بعيد في حربهم الباردة الخاصة بين الحكومات القومية وعلى رأسها مصر والحكومات التقليدية المحافظة التي تدعمها الولايات المتحدة والغرب، مثل العربية السعودية والمغرب.

لكن هذه الصورة تغيّرت بصورة دراماتيكية في السنوات التي تلت حرب العام 1967. فقد بدأ البريطانيون انسحابهم النهائي من منطقة الخليج العربي، وأوقف الفرنسيون إمداد إسرائيل بالسلاح. كما أنَّ نفوذ الاتحاد السوفيتي راح يتنامى. فقد أقام السوفييت قواعد في مصر ووطّدوا علاقاتهم مع العراق في الخليج العربي. وقد أدّت هذه البيئة، التي ورثتها إدارة نيكسون، إلى دور أميركي جديد، يتمثّل بالحلول محلّ القوى الأوروبية في حماية المصالح الغربية إزاء النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط. أمّا الاستراتيجية التي وُضِعَت لذلك فكانت بسيطة: دعم إسرائيل

وإيران عسكرياً وسياسياً وتمكينهما من موازنة العراق في الخليج ومصر وسوريا في بلدان الطوق. وفي هذا الإطار، كان الأمل يحدو الولايات المتحدة بأن تتمكّن من احتواء النفوذ السوفييتي، وتأمين الاستقرار في الخليج، والاستمرار في دعم إسرائيل.

ولقد تحققت هذه الأهداف جزئياً خلال أمد قصير. لكن نظرةً جديدة إلى الولايات المتحدة راحت تحلّ محل النظرة القديمة في سيكولوجية المنطقة. فأميركا كانت تملأ على نحوٍ متزايد ذلك الفراغ الذي خلّفته القوى الاستعمارية الأوروبية، وذلك من خلال لعبها أدواراً جديدة كانت تقف على الضدّ من طموحات المنطقة. ولقد تمثّل أول هذه الأدوار في دعم الحكومات المحافظة في الخمسينيات والستينيات في مواجهة مدّ القومية العلمانية الشعبي؛ أمّا ثانيها فقد تمثّل بتحويل الدول التي يعتبرها العرب عدواً لهم إلى حلفاء أقوياء للولايات المتحدة. وهؤلاء الحلفاء هم إسرائيل، التي كانت الهدف الأساسي للعرب الذين يطمحون إلى مدّ يد العون للفلسطينيين، وإيران، الدولة غير العربية التي دخلت في صراعات طويلة الأمد مع العراق والدول الخليجية العربية الأصغر. ومهما تكن الفضائل الموضوعية لسياسة الولايات المتحدة، إلا أنَّ هذه السياسة في الشرق الأوسط كانت مناقضة لما يطمح إليه الكثيرون من قيام عالم عربي موحّد وقوي، وحكومات تقدمية، ورفع الظلم عن الفلسطينيين، والحدّ من

النفوذ الأجنبي. وهكذا راح يُنْظَر إلى الولايات المتحدة بصورة متزايدة على أنها أساس نظام سياسي غير مرغوب فيه.

ولقد كان لحرب العام 1967 أن تغيّر واقع المنطقة مزيداً من التغيير. فهزيمة مصر في ذلك العام حطّمت الآمال بقيام حركة عربية جامعة. وانتهت الحرب الباردة بين الدول العربية بانكباب هذه الدول على التعامل مع سيكولوجيةِ هزيمةٍ عربيةٍ مدويّة أسفرت عن احتلال إسرائيل لأراضٍ في مصر والأردن وسوريا، فضلاً عن الضفة الغربية وغزة. ولأنَّ الولايات المتحدة كانت تدعم إسرائيل بتقنية عسكرية جديدة متطورة تتفوق على الأسلحة التي كان العرب يتلقونها من الاتحاد السوفيتي، فقد تضاءل الأمل باستعادة الأراضي المفقودة عن طريق القوة على الرغم من مواصلة مصر وسوريا التخطيط لخوض الحرب. ولم ترَ الولايات المتحدة أية ضرورة ملحّة لأن تنظر في المطالب السياسية التي يقدّمها العرب، كما أنها لم تَرَ أيّة علاقة مباشرة بين ما أسفر عنه الصراع العربي الإسرائيلي وتدفّق النفط المتواصل بأسعار معقولة من الخليج العربي. ولاشك أنّ السنوات بين الحربين العربيتين الإسرائيليتين في 1967 و 1973 قد شهدت تعاظماً في الاستياء من الولايات المتحدة ودورها الأساسي المتزايد في المنطقة. فبعد وفاة الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، في العام 1970، كان خلفه، أنور السادات، مولعاً بالقول إنَّ "99٪ من الأوراق" هي في يد الولايات المتحدة. وسواء كان هذا القول صحيحاً أم لا، فإنَّ الافتراضات بأنَّ

الولايات المتحدة تُمْسِك بالمفتاح المفضي إلى سلام عادل قد ساد في المنطقة بغير شكّ، ويعود ذلك جزئياً إلى ما للولايات المتحدة من نفوذٍ وسيطرةٍ مُفْتَرَضَةٍ على إسرائيل.

وحتى حين كانت مصر وسوريا تعدّان العدّة لحرب العام 1973، فإنَّ إجراءاتهما كانت تهدف في قسط كبير منها إلى جرّ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إلى التدّخل دبلوماسياً والضغط على إسرائيل كيما تنسحب من الأراضي التي احتلتها عام 1967. ولقد كانت حرب 1973 مفاجأة كبرى لأنّ فرصة الجيوش العربية في هزيمة إسرائيل واستعادة جميع أراضيها كانت تبدو ضعيفة. ومع أنَّ أداء المصريين والسوريين كان أفضل مما توقّعه الكثيرون، ومع أنَّ المصريين تمكّنوا من عبور قناة السويس واستعادة جزء من أراضيهم، إلاّ أنَّ إسرائيل تمكّنت في النهاية من تحويل مجريات الحرب في مصلحتها.

ومع ذلك، فإنّ مصر وسوريا استطاعتا، سياسياً، أن تحققا أهدافهما الكبرى في تلك الحرب، خاصةً دَفْعَ الولايات المتحدة إلى ممارسة دبلوماسية فاعلة ترمي إلى حلّ القضية العربية الإسرائيلية. وكان ثمّة سببان يمنعان الولايات المتحدة من أن تكتفي بالوقوف على الحياد. أولهما أن إسرائيل كانت بحاجةٍ إلى إمدادٍ كثيف كيما تدرأ هزيمتها، شأنها شأن حاجة المصريين والسوريين إلى الإمدادات السوفيتية. والثاني، إنّه كان هنالك احتمال لقيام مواجهة خطيرة مع الاتحاد السوفيتي. أمّا فوق هذا وذاك، فقد

كانت هنالك قضية النفط. فلأول مرّة، تعمد الدول العربية المنتجة للنفط، وعلى رأسها العربية السعودية، إلى فرض حظر نفطي على الولايات المتحدة، مطالبةً إيّاها بأن تجبر إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة. وكانت عاقبة ذلك الحظر مضاعفة أسعار النفط أربع مرات خلال الأشهر التالية. هكذا استيقظت الولايات المتحدة فجأة على إدراك جديد، مفاده أنَّ القضية العربية الإسرائيلية مرتبطة بقضية النفط في واقع الأمر. وقاد هذا الإدراك إلى بروز مُسلَّمةٍ في السياسة الخارجية الأميركية سادت طوال العقود الثلاثة الماضية، وهي أنَّ السلام العربي الإسرائيلي مصلحةٌ أميركية. لماذا؟ لأنَّ الصراع بين إسرائيل والعرب يجعل من الصعب تدبّر الغايتين الأميركيتين المترابطتين في المنطقة: الإبقاء على تدفّق النفط إلى الغرب بأسعار معقولة وضمان أمن دولة إسرائيل وازدهارها.

وفي ثمانينيات القرن العشرين، انحسر الدور الدبلوماسي الأميركي بعض الشيء نظراً لتركيز إدارة ريغان جهودها على مواجهة الاتحاد السوفيتي بدلاً من تركيزها على حلّ القضايا الإقليمية. غير أنَّ السبب الأساسي في تغيّر دور الولايات المتحدة في المنطقة كان ذلك التغيّر الذي طرأ على البيئة الاستراتيجية في الشرق الأوسط ذاته. فلقد انقسم العالم العربي مرّة أخرى مع طرد مصر من الجامعة العربية لإقامتها سلاماً مع إسرائيل. وغزت إسرائيل لبنان في العام 1982 بغية طرد قوات منظمة التحرير

الفلسطينية، ولم تلبث أن وجدت نفسها واقعة في شراك احتلال مؤلم. والأهم من هذا وذاك ما كانت العراق وإيران، القوتان الخليجيتان، قد تورطتا به من حرب كبرى دامت من العام 1980 إلى العام 1988، ولم تشغلهما وحدهما وحسب، بل شغلت أيضاً جيرانهما المنتجين للنفط وعرّضتهم للخطر.

ومع نهاية عهد ريغان، خرج العراق من حربه مع إيران محاطاً بهالة نصرٍ سياسي، على الرغم من تكبّده مئات الضحايا وتدمير اقتصاده. لكن هذه الأثمان لم تَحُلْ بين الرئيس العراقي صدام حسين والتفكير بمغامرة جديدة في الكويت. وفي الوقت ذاته، كان الفلسطينيون الذين يعيشون في الضفة الغربية وغزة، تلك الأراضي التي احتلتها إسرائيل في العام 1967، قد عزموا أن يتولوا أمورهم بأنفسهم فأطلقوا انتفاضتهم الكبرى الأولى. ولقد استحوذت هذه الانتفاضة الشعبية الفلسطينية على الاهتمام في الشرق الأوسط وخارجه وأحيت المطالبة بتدخّل دبلوماسي فاعل. لكن الدماء المسفوحة في هذه الفترة ولّدت قدراً كبيراً من السخط على الولايات المتحدة في العالم العربي. وفي تقرير كتبتُه لرئيس اللجنة الفرعية الموكّلة بقضايا أوروبا والشرق الأوسط في مجلس النواب بعد زيارة دول عديدة في المنطقة في ربيع العام 1990، وصفتُ ما سمعته هناك بأنه أعلى درجات العداء لأميركا. فالسخط كان شديداً حتى في بلدان صديقة للولايات المتحدة مثل مصر والأردن.

ولقد تغذّت هذه التصورات على الاستخدام الأميركي لحقّ الفيتو في مواجهة قرار مجلس الأمن حماية الفلسطينيين، وعلى قرار الكونغرس إعلان القدس عاصمة موحَّدة لدولة إسرائيل؛ وهجرة اليهود السوفييت الكثيفة إلى إسرائيل والتي خشي كثير من العرب أن تشجّع إسرائيل على الاحتفاظ بالضفة الغربية بغية استيعاب الوافدين الجدد. وكانت هذه الأحداث تجري بينما الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة تتقدّم صوب نهايتها. ورأى معظم العرب أنَّ نهاية الحرب الباردة تعني خسارة دعم الاتحاد السوفيتي وتالياً هيمنةً إسرائيليةً مدعومةً أميركياً. ولقد عمّ هذا الاستياء من السياسة الأميركية المنطقة برمّتها وشمل كثيراً من حلفاء الولايات المتحدة. حتى الصحف الكويتية راحت تدعو العرب لأن" يتخذوا مواقف جدّية وموضوعية ضد الولايات المتحدة، التي تصرّ على مواقفها المعادية للقضايا العربية[13]". كما حذّر الرئيس المصري حسني مبارك من أنَّ " المواقف الأميركية المنحازة لا بدّ أن تُرْجِع المنطقة إلى الخيار العسكري[14]".

بيئة الاستياء هذه كانت الأرضية المثلى التي يمكن لصدام حسين أن يستغلها. فمن الواضح أنَّ أهدافه من وراء غزو الكويت

---

13 ـ تقارير نُشِرَت في صحف كويتية وأعاد نشرها المكتب الفيدرالي للخدمات الإعلامية (FBIS)، *التقرير اليومي لـ FBIS*، 5 حزيران 1990 (FBIS ـ NES ـ 90 ـ 108).

14 ـ الرئيس المصري حسني مبارك، ورد في *التقرير اليومي لـ FBIS*، 5 حزيران 1990 (FBIS ـ NES ـ 90 ـ 108).

لم يكن يربطها أيّ رابط بالقضية الفلسطينية أو الصراع العربي الإسرائيلي. لكنه سعى إلى استغلال ما في المنطقة من نزعةِ عداءٍ لأميركا خدمةً لمصالحه الخاصة، ولذلك راح يركّز في الأشهر التي سبقت الغزو على الصراع العربي الإسرائيلي. والحال، أنَّ صدام حسين كان يعلم، حين غزا العراق الكويت في العام 1990، أنَّ الولايات المتحدة ستحاول أن توقفه عند حدّه. وما أخطأ في حسابه هو استعداد الحكومات العربية لأن تنضم إلى حملة عسكرية مناوئةٍ له في بيئةٍ كان رأيها العام ساخطاً على أميركا. وما أدّت إليه حساباته الخاطئة لم يقتصر على هزيمته المدوية وإخراجه من الكويت بل تعدّى ذلك، مع انتهاء الحرب الباردة، إلى حقبة من السلام الأميركي* في الشرق الأوسط. فمع غياب العامل الذي كان يشكّله الاتحاد السوفيتي؛ ومع القواعد العسكرية الأميركية الجديدة في الخليج العربي؛ ومع انضمام دول عربية أساسية مثل العربية السعودية ومصر وسوريا إلى التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، كان الشرق الأوسط ينقاد إلى نظام إقليمي جديد يصوغه نفوذ الولايات المتحدة. ولم يبق لأولئك الذين كانوا يحلمون بقائد عربي قوي يغيّر الوضع السياسي العربي سوى أن يستسلموا لمصيرهم حين لم يَعُدْ ثمّة بطل في الأفق. أمّا البقية

---

* ـ السلام الأميركي، Pax Americana، عبارة مصوغة على غرار العبارة اللاتينية Pax Romana، وتعني ذلك السلام الذي كان قائماً بين أجزاء الإمبراطورية الرومانية المختلفة. ومثلها عبارة Pax Britannica، وتعني السلام الذي سبق للحكم البريطاني أن فرضه في إمبراطوريته الاستعمارية. (م)

فقد احتشدت وراء رؤيةٍ مفادها قيام " نظام عالمي جديد " سوف يجلب المنافع للشرق الأوسط عبر الحلّ التفاوضي للقضية العربية الإسرائيلية، والازدهار الاقتصادي، والليبرالية السياسية التي راحت الولايات المتحدة تدافع عنها مع انتهاء الحرب الباردة.

كان أساس هذا الأمل تلك الجهود الدبلوماسية الأميركية المنبعثة، التي قادها وزير الخارجية جيمس بيكر، وجمعت معاً العرب والإسرائيليين لإطلاق عملية مفاوضات جديدة في مدريد الإسبانية العام 1991. كما تلقّت مفاوضات السلام دفعة أخرى في العام 1993 حين تبنّت إدارة كلينتون اتفاقيات أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، التي تصوّرت قيام فترة انتقالية من الاستقلال الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة بينما يتفاوض الطرفان على التسوية السلمية النهائية. وكان لعملية السلام هذه أن تعزّز في العالم العربي، وحتى آخر أيام إدارة كلينتون، معسكراً معتدلاً مكّن من احتواء الأصوات الجذرية التي راحت تتحدّى لا المفاوضات وحسب بل النظام السياسي الذي تدعمه أميركا. بيد أنّه حين انهارت المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية في حزيران من العام 2000، انهار معها إطار السلام الأميركي في الشرق الأوسط. فقد شهد الفلسطينيون والإسرائيليون دوامةً متصاعدة من العنف في الأشهر التي تلت، وحلّ واقع جديد متجهّم وكالح. فبعد عقد من السيطرة الأميركية في الشرق الأوسط، لم يأتِ التطور الاقتصادي قطّ، وسُوِّفت الإصلاحات السياسية،

وتضاءل إلى حدٍّ بعيد أمل السلام العربي الإسرائيلي. وكانت هذه هي البيئة التي ورثها الرئيس جورج دبليو بوش حين تولّى منصبه في كانون الثاني من العام 2001.

طرحت هجمات 9/11 أسئلة جوهرية جديدة بشأن الشرق الأوسط والسياسة الأميركية في المنطقة. غير أنَّ تركيز شعوب المنطقة ذاتها بقي على العنف المتصاعد بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وبينما راحت أميركا تنظر إلى الشرق الأوسط من منظور الهجمات التي طالت الولايات المتحدة في عقر دارها، راح العالم العربي ينظر إلى أميركا من منظور حوادث العنف الجارية فيه، والتي أنحى باللائمة فيها على أميركا بوصفها نصيرة إسرائيل. وما رآه كلّ طرف من هذين المنظورين كان أشدّ شناعة مما كان قائماً في الواقع.

من الواضح، في النهاية، أنَّ مواقف المنطقة من الولايات المتحدة قد شكّلتها السياسات الأميركية بالدرجة الأولى وليس القيم الأميركية. وبوجهٍ عام، فإنَّ استياء العرب يمضي إلى أبعد من قضايا السياسة الخارجية: حيث يُنْظَرْ إلى أميركا على أنها دعامة نظام إقليمي يشتمل على قمعٍ داخلي وفرصٍ اقتصادية محدودة. غير أنَّ الاستطلاعات تبيّن أنَّ ما من قضية تجد تجاوباً لدى الشعوب أو تصوغ المواقف من الولايات المتحدة بالقدر الذي يفعله النزاع العربي الإسرائيلي. وتحتاج أهمية هذه القضية في العالم العربي وأجزاء أخرى من العالم الإسلامي مزيداً من التفسير، الأمر الذي سنعرض له في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

خصوصيات المنطقة

بعيداً عن قضايا السياسة التي تقع في القلب من غضب المنطقة على الولايات المتحدة، تبدو بعض المواقف في الشرق الأوسط عصيّة على التفسير. فالغضب من السياسة الخارجية الأميركية لا يفسِّر، مثلاً، لماذا رفض كثيرون في المنطقة تحميل ابن لادن مسؤولية الهجمات على الولايات المتحدة ولم يروا، تالياً، أنَّ الحرب في أفغانستان حربٌ مبرّرة، على الرغم من قلّة شعبية نظام طالبان في الشرق الأوسط.

بعد مرور بضعة أسابيع على هجمات 9/11، نظّمتُ (بالتعاون مع مؤسسة الخدمات التعليمية والتدريبية الأميركية ـ الشرق أوسطية[15]) ندوةً في جامعة ميريلاند، في كوليج بارك، جمعتْ عشرين خريّجاً حازوا الفولبرايت في الولايات المتحدة وينتمون إلى عدد من الدول العربية وعشرين خريّجاً أميركياً من جامعة ميريلاند لمناقشة ردود فعلهم على الهجمات. وقد وجد هؤلاء الخرّيجون أنَّ هنالك أرضية مشتركة واسعة يتقاسمونها، على

15 ـ تأسست AMIDEAST في العام 1951 كمؤسسة خاصة غير ربحية تعمل على تعزيز التفاهم والتعاون المتبادلين بين الأميركيين وشعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. ومع أنّ مقرّها في واشنطن، دي.سي، إلا أنّ لها شبكة من المكاتب الميدانية في مصر والأردن والكويت ولبنان والمغرب وسوريا وتونس والإمارات العربية المتحدة والضفة الغربية/قطاع غزة واليمن.

الرغم من بعض التباين في وجهات النظر. ولم يأتِ اليوم التالي حتى بدأ كلّ فريق يكتشف مدى حدّة مشاعر الفريق الآخر. غير أنَّ قضيةً برزت في ذلك النقاش، وهي أنّه على الرغم من الإدانة الشديدة التي أدان بها الخريجون العرب تلك الهجمات واعتقادهم أنَّ الفاعلين ينبغي أن يواجهوا ما يستحقونه من العقاب، فإنَّ معظمهم لم يَرَ أن القاعدة وبن لادن هما اللذان يقفان وراءها، أو أنَّ عرباً أو مسلمين يمكن أن ينظّموا مثل هذه الهجمات. فما الذي يفسّر مثل هذه النظرة المتناقضة؟

الحقّ، أنَّ مثل هذه الآراء لا تقتصر على العالم العربي. فخلال محاضرة ألقيتها في كانون الأول من العام 2001 في باكو، في أذربيجان (التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفييتي)، لم يُشِرْ أيّ من الطلبة والأساتذة الجامعيين الحضور، والذين بلغ تعدادهم 200، إلى اعتقاده أنَّ بن لادن يقف وراء أحداث 9/11، على الرغم من إدانتهم تلك الهجمات. وهذا ما تؤكّده أيضاً استطلاعات الرأي العام التي أُجريت في البلدان العربية والإسلامية بعد 9/11.

كان للحوار الذي جرى في جامعة ميريلاند أن يكشف أيضاً عن ثلاثة ميول سائدة لدى المشاركين العرب:

1. لقد رفضوا احتمال أن يكون العرب والمسلمين قد ارتكبوا مثل هذه الفظائع. كانت تُثقل عليهم فكرة أنَّ أحداً بينهم يمكن أن يكون قادراً على ارتكاب مثل هذا العمل الرهيب: "مثل هذه الهجمات تتناقض مع المثل

الإسلامية العليا، ولذلك لا يمكن أن يكون مسلمون قد قاموا بها".

2. كان ثمّة ميل إلى رفض الأدلّة مباشرة وكأنَّ الأمر مفروغٌ منه، وذلك بالطريقة ذاتها التي رفض بها بعض الأميركيين الأفارقة الأدلة التي تشير إلى تورّط أو. ج. سيمبسن في قتل زوجته السابقة وصديقها: فهم لا يثقون بالنظام، ولا يثقون بالمُرْسِل، ولا يثقون بالرسالة. فانعدام الثقة بالولايات المتحدة واسع النطاق، وقوة الولايات المتحدة طاغية تماماً، ولذلك كان ثمّة شبهة بأن تكون الأدلّة ذاتها قد لُفّقَت بغية تبرير السياسة الأميركية.

3. لقد تساءلوا: من المستفيد من هذه الهجمات؟ ورأوا أنّ العرب والمسلمين هم الخاسرون بوجهٍ عام، وأنَّ القضية الفلسطينية قد مُنيت بانتكاسة إذْ راحت الولايات المتحدة تنظر إلى المنطقة من منظور الإرهاب بالدرجة الأولى. وذهب تفكيرهم إلى أنَّ العرب والمسلمين ما كانوا ليجلبوا على أنفسهم مثل هذه النتيجة.

لقد غدا هذا الميل إلى تجنّب المسؤولية والمحاسبة وجهاً من أوجه الثقافة السياسية في الشرق الأوسط. وهو يُفَسَّر، جزئياً، بسردية الضحية التي هي سردية منتشرة تصوّر العرب، لأسبابٍ وجيهةٍ في بعض الأحيان، بأنهم تحت رحمة قوى خارجية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى: تبدّدُ طموحات الاستقلال بعد الحرب،

سنوات السيطرة الاستعمارية، والحروب الخاسرة في معظمها مع إسرائيل طوال نصف القرن الأخير. أمّا أميركا القوية، بحضورها العسكري في الخليج، ودعمها الشديد لإسرائيل، ودورها المسيطر في المنظمات الدولية مثل مجلس الأمن، فتشكّل رمزاً حديثاً لهذه التبعية وغياب الاستقلال. وهذا شعور نجده لدى حكومات المنطقة كما نجده لدى أفراد الجمهور. وخلال زيارتي إلى الشرق الأوسط بعد حرب الخليج في العام 1991، عبّر كثير من المسؤولين الكبار عن وجهة نظرهم التي مفادها أنَّ الولايات المتحدة قد أبقت صدّام حسين في منصبه عامدةً كيما تبرّر وجود القوات الأميركية في المنطقة.

ومع أنَّ شدّة هذا الإحساس بالتبعية الميئوس منها قد تكون في العالم العربي أعلى منها في بعض المناطق الأخرى، إلاّ أننا نجدها أيضاً في غير مكان من العالم، خاصةً أميركا اللاتينية، حيث تشكّل منذ أمدٍ بعيد جزءاً من الثقافة الفكرية. كما أنَّ هنالك أيضاً ذلك الشعور باليأس حيال النظام السلطوي القائم الذي يسيطر على حياة البشر منذ بزوغ نظام الدولة الحديثة في المنطقة. ونظريات المؤامرة هي انعكاس للعجز وفقدان القدرة أولاً وأخيراً: فمن ليست لديهم القدرة ينحون باللائمة على من يُنْظَر إليهم على أنهم يحوزونها ويستخدمونها إلى أبعد الحدود. ولأنَّ المواطنين العاديين في أرجاء واسعة من المنطقة لا يمتلكون أيّة قدرة على التأثير في نظامهم السياسي، أو تغيير توجّهاته الاقتصادية، أو

التأثير في توجّهات مجتمعهم عموماً، فإنّهم ينحون باللائمة على من يرون فيهم القوة والفاعلية.

وكثيراً ما تفيد الحكومات من نظريات المؤامرة إذْ تزيح مثل هذه الأفكار المسؤولية عن كاهلها، وبذلك تشكّل بديلاً مريحاً للمحاسبة وتحمّل المسؤولية. غير أنَّ مثل هذا الميل ينطوي في النهاية على إلحاق هزيمة بالذّات إذْ يجعل التغيير البنّاء أشدّ صعوبة. صحيحٌ أنَّ ما يجري في الشرق الأوسط يتوقّف جزئياً على ما يفعله العالم الخارجي، وأنَّ الأهمية الاستراتيجية للمنطقة تعني أنَّ الأمم القوية مثل الولايات المتحدة سيكون لها على الدوام كلمتها الأساسية في صياغة الأحداث، وأنَّ إسرائيل، بوصفها الدولة الأقوى في المنطقة، تلعب أيضاً دوراً كبيراً في تشكيل النظرة الاستراتيجية إلى هذه المنطقة، غير أنَّ النتيجة نادراً ما تتوقف على طرفٍ واحد، مهما يكن ميزان القوى مختلاً وبعيداً عن التكافؤ.

ومن المهم أن نبقي في الذهن أنَّ عادة عدم الثقة بالفاعلين الكبار، والشكّ في دوافعهم، هي عادة شائعة على نحوٍ خاص بين فئات المجتمع الهامشية والمحرومة في أرجاء كثيرة من العالم. ونظريات المؤامرة ليست مقصورة على الشرق الأوسط بأي حال من الأحوال؛ فهي شائعة في الأمم المتطورة وفي غيرها. وعلينا أن نتذكّر أنها شائعة أيضاً لدى كثير من الفئات الهامشية في مجتمعنا، خاصةً أولئك الذين لم يسبق لهم أن وثقوا بقوة الحكومة. فنظريات المؤامرة بشأن اغتيال الرئيس ج. ف. كنيدي لم تتوقف ولو للحظة

منذ وفاته. ولطالما ولّدت الحوادث الأليمة، مثل إطلاق النار في مدرسة كولومبين الثانوية والتفجير في أوكلاهوما سيتي، نظريات تتّم على عدم الثقة بالتفسيرات الرسمية، وعادة ما تتخيّلُ حكومةً غامضةً ما متورطةً من خلال تقنياتٍ كتقنية "السيطرة على العقول". ولطالما رأت "النيو أميركان"، مجلةُ جمعية جون بيرتش اليمينية المتطرفة، أنَّ ثمّة صلة للشرق الأوسط بتفجيرات أوكلاهوما سيتي، على الرغم من الأدلّة القاطعة التي تشير إلى العكس.

والحال، أنَّ كثيراً من نظريات المؤامرة التي شاعت في الشرق الأوسط عن 9/11 كانت قد تغذّت على قصصٍ وُلِدَتْ في أميركا. فقد سارع بعضهم في البلدان العربية إلى الاستشهاد ب "مرشّح رئاسي سابق" (هو ليندون لاروش) عارض التفسير الذي يقول إنَّ بن لادن هو الذي يقف وراء الهجمات واقترح البحث عن المجرم في مجالات مثل "محاولة انقلاب عسكري ضد الحكومة الأميركية والرئيس جورج دبليو بوش"، و"النظام الإسرائيلي الحالي"، و "سياسة صدام الحضارات لدى زبغنيو بريجنسكي، وصموئيل هنتنجتون، وآخرين[16]". وبالمقابل، فإنَّ النظريات الشرق أوسطية عن 9/11 هي أقلّ إحكاماً وإتقاناً: فمن قصة حقيقية عن توقيف جواسيس إسرائيليين محتملين في الولايات المتحدة

16 ـ ليندون.ه.لاروش الابن، "زبغنيو بريجنسكي والحادي عشر من أيلول"، في:
Executive Intelligence Review 29,1 (January 11, 2002)

وترحيلهم بعد 9/11، ومن واقعة أنَّ الهجمات قد عزّزت العلاقات الأميركية الإسرائيلية على حساب العلاقات الأميركية العربية، عمد بعض العرب إلى بناء قصص متخيّلة عن مسؤولية إسرائيل، التي تمثّل بالنسبة لهم قوة قادرة تماماً.

ولقد وجدَ نقدُ الولايات المتحدة بوصفها القوة المسيطرة ونصيرة إسرائيل المزيد مما يقتات عليه في واقعة أنَّ معظم الحكومات في الشرق الأوسط غالباً ما تفيد من نظرية المؤامرة التي تنحو بلائمة إخفاقاتها على الآخرين وتشكّل قناةً لتصريف إحباطات الشعوب التي لا يُسمح بتصريفها إلا في مثل هذه القنوات اللفظية الكلامية. ففي النهاية، يُبْرَز الغضب الفعلي حيال السياسات الأميركية ويتمّ التأكيد عليه من خلال شتائم كلامية في وسائل الإعلام تلعب دور البديل عن الأفعال التي يمكن أن تهدّد حكومات المنطقة.

عواقب

ثمّة استياء عام من الولايات المتحدة في البلدان العربية والإسلامية، وهو استياء ناجمٌ في معظمه عن السياسة الخارجية الأميركية. ووجود فجوة بين بعض القيم الأميركية الأساسية وتلك التي يتمسّك بها العرب والمسلمون، فضلاً عن وجود بعض التداخل بالطبع، لا ينبغي أن يكون مدعاةً للدهشة والاستغراب. فالنظر إلى

هذه الفجوة من منظور عالمي يلقي الضوء على تعارض مماثل بين الولايات المتحدة وبلدان أخرى في أرجاء العالم كفيل بأن يحدّ من الحيرة والاستغراب. ولاشك أنَّ الاستياء من الولايات المتحدة بين العرب والمسلمين أشدّ منه في مناطق أخرى. لكن المسألة تتعلّق في النهاية بالعواقب: هل تشكّل هذه الفجوة، أو هذا الغضب الشعبي الشديد حيال الولايات المتحدة، خطراً على المصالح الأميركية؟ وهل يؤثّران بأيّ حال من الأحوال على الحرب التي تشنّها ضد الإرهاب؟

وحقيقة الأمر، أننا إذا ما اعتبرنا القاعدة حالةً خاصة تتطلّب تفسيرها الخاص، فسوف نجد أنَّ الاستياء من الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وسواه من البلدان الإسلامية لم يُتَرْجَم تاريخياً إلى إرهاب معادٍ لأميركا. فباستثناء القاعدة، لم يتصدّر الشرق الأوسط مناطق العالم الأخرى في الهجمات الإرهابية على أهداف أميركية. ولذلك، فإنَّ من المنطقي أن نتساءل ما إذا كان الرأي العام في المنطقة مُضِرًّا فعلاً وعلى نحوٍ جديّ بالسياسة الخارجية الأميركية، خاصةً أنَّ معظم دول الشرق الأوسط هي دول سلطوية وقادرة تالياً على الاستخفاف بأماني شعوبها ورغباتهم. هل للرأي العام أهمية في الشرق الأوسط، أم أنَّ من الممكن الاستخفاف به كلّ الاستخفاف لدى صياغة السياسة الخارجية الأميركية؟ هذه الأسئلة المهمة هي موضوع الفصل التالي.